# الفكر الاقتصادي لمدرسة الطبيعيين

- **المقدمة :**
- تميز القرن الثامن عشر بانتشار الفكر و النزعة العلمية في أوساط الباحثين والعديد من الحقول المعرفية، فقد تقدمت في هذا القرن علوم الطبيعة و الكيمياء والفلك و غيرها من العلوم الطبيعية الأخرى، و قد أثر هذا التطور على طريقة و منهج البحث لدى المفكرين في العلوم الإنسانية و الاجتماعية، فشرعوا في دراسة مختلف سلوكيات الإنسان و علاقاته باعتبارها خاضعة لقوانين تشبه القوانين التي تحكم مختلف الظواهر الطبيعية، و بذلك اتجهت جهود المفكرين إلى تخليص العلوم الإنسانية من كل أبعاد أخلاقية أو معيارية لتصبح تعبير عن علاقات وضعية و تفسيرية.

- ظهرت مدرسة الطبيعيين في ظل هذه التحولات الفكرية الواسعة التي عرفها العالم الأوربي، فهي تعتبر جزء من تيار ساد فرنسا و أسس لعصر الأنوار في القرن الثامن عشر الذي لمع في وسطه فولتير، مونيسكيو، روسو، ديدور و غيرهم من فلاسفة هذا العصر الذهبي من تاريخ أوربا الحديث، و قد تأثر الطبيعيون بشكل كبير و مباشر بهذه النزعة العلمية و التجريبية التي اتضحت في أعمال رائد هذه المدرسة الطبيب الفرنسي فرانسوا كيناي ((François Quesney، وكان طبيب العائلة المالكة، و عضو المجالس الفكرية التي كانت تجمع الأدباء و الفنيين و الفلاسفة في دور البورجوازية الأوربية، و اهتم كثيرا بالمشاكل الفلاحية، و شارك في وضع منجد "دائرة المعارف" حيث شرح كلمتي "مزارع" و "بذار". الذي قد م نظريته الاقتصادية بناءا على تشبيه العلاقات الاقتصادية للأفراد داخل الدولة بالعلاقات التي تحصل بين الأعضاء المكونة للجسم الإنساني، هذه المحاولات لفرانسوا كيناي و غيره من الاقتصاديين كـ"وليام بيتي"، تعكس رغبة كبيرة في إخضاع الظواهر الإنسانية الاقتصادية للدراسة العلمية الدقيقة و الموضوعية. لتنبأ أعمال هؤلاء بإحداث نقلة نوعية في دراسة الاقتصاد و تحديد معالم البحث في مختلف قضاياه، ما جعل البعض يعتقد بأن الفضل في ظهور علم الاقتصاد الحديث يرجع لأعمال الطبيعيون الذين حددوا نطاق البحث الاقتصادي و مناهجه و أهدافه، من خلال إدخال فكرة القوانين الاقتصادية.

- **مصطلح الطبيعيون**
- **تشير تسمية الطبيعيون إلى مجموعة الأفكار الاقتصادية التي نشأت و سادت فرنسا في نهاية حكم لويس الخامس عشر، بحيث قام مجموعة من الفلاسفة الاقتصاديين ( الطبيعيين) بتقديم نظرية متكاملة عن النشاط الاقتصادي، مبنية على دراسة الإنسان و علاقته بالعالم الطبيعي.**
- **والطبيعيون هم جماعة من النبلاء و الملاك الزراعيين، و العلماء و الذين انضموا تحت راية الاقتصادي الطبيب فرانسوا كيناي، الذي يعود له الفضل في وضع أسس المدرسة الطبيعية وعلم الاقتصاد السياسي الحديث، بعد إصداره كتابه الشهير الذي عنونه بـ"الجداول الاقتصادية" سنة 1750، و هيمن على الأفكار الاقتصادية في فرنسا إلى غاية قيام الثورة الفرنسية 1789.**

- لقد ولدت المدرسة الطبيعية في عهد اتسم بالاضمحلال الاقتصادي، وبأزمة طويلة كونت الواقع الموضوعي الذي هيأ الثورة الفرنسية، فجاءت بأفكار اقتصادية ذات طابع ثوري تمردي واضح، نادت من خلالها إلى ضرورة الرجوع إلى الأرض والطبيعة باعتبارها مصدر كل الخيرات و التخلي في المقابل على سياسات التجاريين التصنيعية التي دعا إلى تطبيقها كولبير الذي اتهمه بتفقير البلاد، ونادت بالإصلاح و تغيير الأوضاع و الرجوع إلى القيم الطبيعية و الأصيلة للإنسان. و يعتبر كيناي أشهر الطبيعيون الذين دعوا للرجوع إلى الطبيعة و اعتبر أن الأرض هي مصدر الثروة.

**مبادئ المذهب الطبيعي**

**وهي:**

**1- يستمد قواعده من العناية الإلهية ( Natural order)الاعتقاد بوجود نظام طبيعي**

**2- وهي ليست من صنع البشر. ،( Providential order)وإن هذه القواعد أو القوانين يمكن أن تسري من تلقاء نفسها دون تدخل الإنسان.**

**3- أساس النظام في المذهب الطبيعي هو الملكية الفردية، والحرية الاقتصادية، ، بناءا على مفهوم الحرية التي يكفلها النظام الطبيعي للأفراد، فمن حق الإنسان حسب الطبيعيين أن يملك ما يشاء ويختار المهنة التي يشاء، باعتبار أن المصلحة الذاتية لا تتعارض مع المصلحة العامة، ويعود أصله إلى العبارة المشهورة " دعه يعمل دعه يمر إلى الاقتصادي الفيزوقراطي " إلى "فانسون كورني"، والتي تبناها لاحقا "آدم سميث" كأساس لفكره الاقتصادي.**

**4- العمل الزراعي هو العمل المنتج الوحيد ، والزراعة هي التي تغل ناتجا صافيا، وإن الصناعة والتجارة هما عبارة عن أعمال خدمية غير منتجة و يسمون التجار والصناع وأرباب المهن بالطبقة العقيمة غير المنتجة، لأنها لا تخلق ثروة جديدة، ولهذا فإن أهم ما ترتب على نظرية ((Physiocrates و المذهب الطبيعي من نتائج أنها اختصت بالضريبة. وطالما إن الأرض هي مصدر الثروة فيجب أن تقتصر عليها الضريبة فحسب. أن رأيهم أن تكون السلطة الدستورية مطلقة للملك ،. وتكون مهمته توجيه الأفراد نحو النظام الطبيعي وان تكون الحكومة ملكية ووراثية مطلقة .**

- الملكية جزء من النظام الطبيعي، و هي تشمل:
- 1- الملكية الشخصية: و هي حق الشخص في استغلال ملكاته الذهنية والعضلية و الحصول على مقابل إنتاجه، أي الحق في الحرية.
- 2- الملكية المنقولة: و هي حق الشخص في ملكية ثمرة عمله.
- 3- الملكية العقارية: و هي تتعلق بصفة خاصة بملكية الأراضي الزراعية

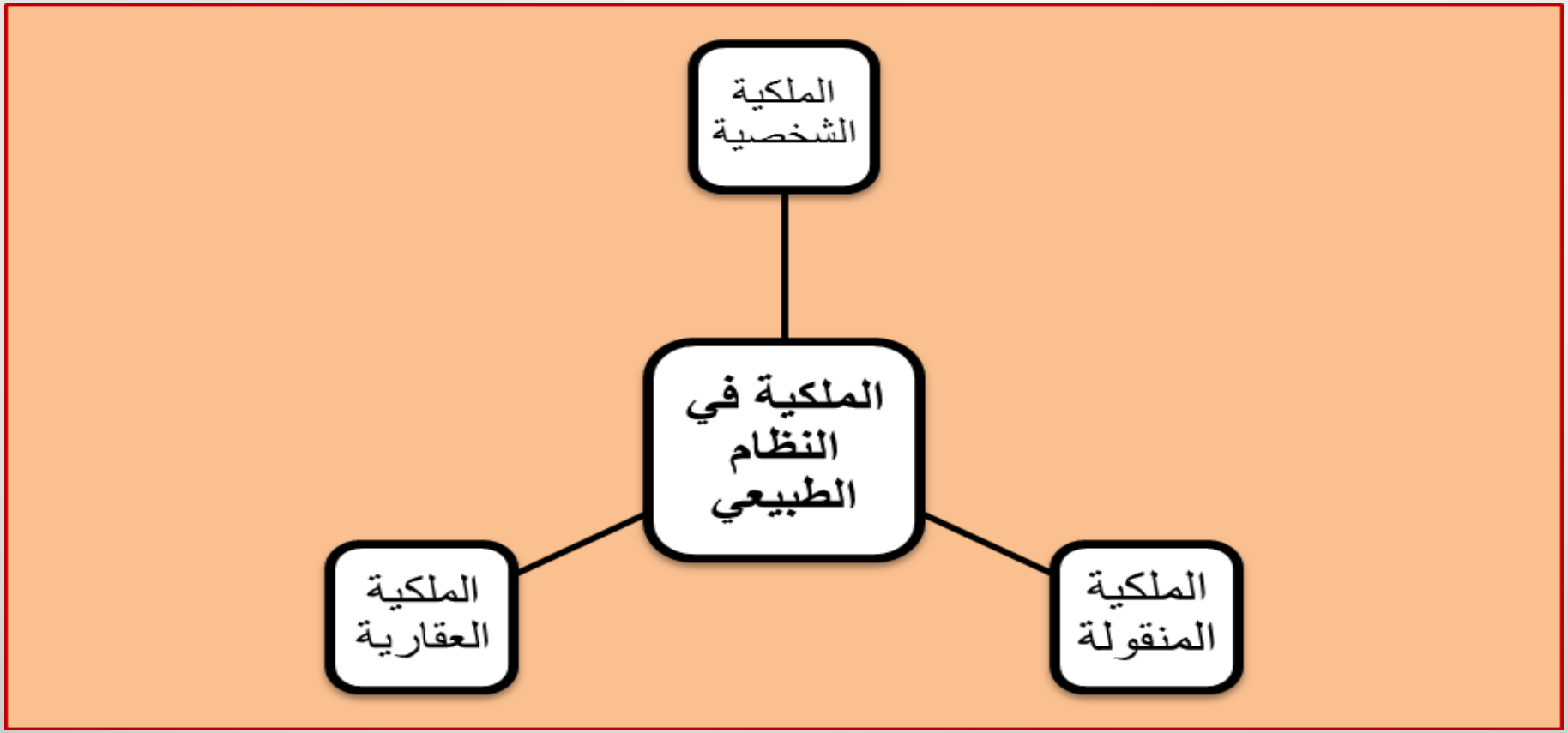
الملكية الشخصية
الملكية في النظام الطبيعي
الملكية العقارية
الملكية المنقولة

## قوانين النظام الطبيعي

يعتقد الطبيعيون بفكرة وجود قوانين ترعى الشـؤون الاقتصـادية، فبـالرغم مـن إرجاعهـا هـذه القوانين إلى القدرة الإلهية. و لهذه النقطة أهمية كبيرة تجعل من الطبيعيـين أول مـن أعطـى للاقتصاد صفة العلم الباحث عن القوانين التي تنظم شؤونـــه. و حـددت بـذلك مـنهج و حـدود البحث لدى المدارس التي تلتها، الكلاسيكية و الماركسية.

- بدأ الطبيعيون تعريفهم للثروة باستبعاد المعدن النفيس كمصدر لها اعتقد المركنتيليون بأن مصدر الثروة هو الذهب و الفضة، و أن الفرد أو الدولة التي تملك أكبر كمية من هاته المعادن هو الثري و الغني، لكن الأمر مختلف بالنسبة للطبيعيين، فهم يعتقدون بأن النقود المعدنية ليست إلا ثروة عقيمة، و يعرفون الثروة بأنها : كمية من المنتجات التي بإمكاننا أن نستهلك منها ما يطيب لنا و بدون حساب، دون أن يؤدي هذا الاستهلاك إلى شح المنبع الرئيسي لهذه المنتجات، فالثروة هي: مجموعة القيم التي يمكن استهلاكها عند الرغبة دون إفقار لمصدرها، و لذلك نجد بأن النشاط المنتج الوحيد هو الزراعة، و أن غير ذلك هو مجرد تحويل عقيم لصورة المادة، فأنواع النشاط الأخرى غير قادرة على الخلق و إعطاء قيمة جديدة أو ريع صافيا لأنها من قبيل الحرف العقيمة، يقول كيناي في هذا الصدد إن الزراعة هي النشاط الوحيد الذي يمنح الإنسان أكثر مما يحصل عليه، فالزراعة تضاعف، بينما الصناعة تحول و التجارة تنقل..

**مـــــــــــــا هـــــــــــــــو الريـــــــــــــــع الصـــــــــــــــافي**

**في كل عملية إنتاجية يقوم الإنسان للحصول على سلعة أو رزق لا بد له من إنفاق بعض المصاريف الضرورية لإنتاج تلك السلعة ( شراء مواد أولية، صرف الوقت اللازم، تسديد أجر العمال...)، و هذه التكاليف لابد له من أن يقتطعها من السلعة المنتجة و المنجزة حتى يحصل على ما يسمى "ريعا صافيا" لعمليته الإنتاجية، أو بصورة أبسط فالريع الصافي هو الفرق بين ما ينفق للحصول على سلعة ما، و بين نتيجة العملية الإنتاجية التي هي السلعة نفسه. و إن هذا الريع الصافي بهذه الصورة لا تمنحه سوى الزراعة دون غيرها من الفعاليات الاقتصادية الأخرى، و سبب ذلك بنظر الطبيعيون بسيط: فحبة القمح مثلا التي تبذر في الأرض تعطي أضعافا لها، أي الأرض وحدها هي المنتجة للريع الصافي و أن ذلك يعود إلى عمل الخالق الإله، فالزراعة هبة من الطبيعة، و يؤدي تضافر جهد الإنسان مع عمل الطبيعة إلى نشوء قيمة جديدة لم تكن موجودة و هي الناتج الصافي.**

- ما المقصود بالجدول الاقتصادي؟
- بعد أن بين الطبيعيون كيف أن الزراعة هي النشاط المنتج الوحيد من خلال فكرة الريع الصافي، يتطرقون في مستوى آخر إلى تحليل الكيفية التي يتم من خلالها توزيع الدخل العام الناجم عن الريع الصافي على الأفراد داخل المجتمع، و ذلك من خلال استخدام الجدول الاقتصادي الذي وضعه فرانسوا كيناي مستعينا في ذلك بخبرته في ميدان الطب، بحيث لجأ إلى تشبيه العملية التي يتم من خلالها توزيع الدخل و دوران الثروة على طبقات المجتمع بعملية دوران الدم داخل جسم الإنسان ( الدورة الدموية)، و تعتبر نظرية توزيع الدخل من أشهر النظريات التي قدمها الطبيعيون في دراساتهم الاقتصادية.

- فمن خلال الجدول الاقتصادي حاول كيناي أن يبين كيفية توزيع الناتج الصافي و دورانه بين الطبقات في المجتمع، ليقدم لنا بذلك عرض لدورة الناتج الصافي بانتقال الدخول من طبقة إلى أخرى، أكثر من كون قدم لنا نظرية للتوزيع بالمعنى الحديث.
- فانطلاقا من مبدأ الريع الصافي، و تقسيم المجتمع إلى طبقة عقيمة و أخرى منتجة، استطاع كيناي أن يخطط جدولا اقتصاديا يبين فيه كيفية انتقال الثروة من الطبقة المنتجة الزراعية إلى غيرها من الطبقات العقيمة، ثم كيف تعود هذه الثروة إلى نفس الطبقة التي انطلقت منها أي الزراعية، و هكذا في كل عام من الإنتاج.
- و قد قسم كيناي المجتمع إلى ثلاثة طبقات:
- 1- الطبقة المنتجة: و تشمل العمال الزراعيين الذين يقومون على خلق الناتج الصافي، و هو الزراعة.
- 2- طبقة الملاك العقاريين: و هؤلاء و إن لم يكونوا منتجين بالمعنى المتقدم، إلا أن الطبيعيين رتبوا على دورهم أهمية خاصة، و بذلك احتلوا مكانا وسطا بين طبقة المنجين و الطبقة العقيمة.
- 3- الطبقة العقيمة: تشمل ذوي الحرف الأخرى غير الزراعة، و يدخل فيها العاملون في الصناعة و التجارة، و اعتبرت هذه الطبقة عقيمة طبقا لنظرية الريع الصافي، حيث أنها لا تضيف إلى الإنتاج الصافي كما هو الحال في الزراعة.

- تقييم الفكر الاقتصادي للطبيعيين:

- 1- أثبت الطبيعيون من خلال طريقتهم في التحليل الاقتصادي تفوقا وتميزا عن باقي المدارس و الاتجاهات التي سبقتهم، فمن خلال اعتمادهم على المنهج التجـريبي، و تحديد مهمة الباحث في اكتشاف القوانين الموضوعية التي تحكم التفاعلات الاقتصادية، ساهموا في بلورة ملامح علم لاقتصاد السياسي، بل يذهب البعض –كما سلف الذكر، إلى اعتبار فرانسوا كيناي مؤسس علم الاقتصاد السياسي الحديث.
- 2- و تبقى فكرة القوانين أهم ما جاء به الطبيعيون، لأنهم حرروا بذلك البحث الاقتصادي من أحضان الفلسفة و الأخلاق و الفكر الديني الكنسي. و بينوا كيف أن الظواهر الاقتصادية كغيرها من الظواهر الطبيعية الأخرى تحكمها قوانين موضوعية ينبغي على الباحث العمل على اكتشافها.
- 3- كما أن نظرية كيناي حول دوران الناتج الصافي اعتبرت من أهم الأعمال التنظيرية للطبيعيين، نظرا إلى ما قدمته هذه النظرية من إضافة في أدوات التحليل، بحيث اعتبرت أول بداية تحليلية لوضع نماذج للتوازن العام للاقتصاد الوطني، و قد أدت هذه النماذج فيما بعد إلى وضع نماذج "فالراس" و نماذج المنتج – المستخدم للتوازن لـ"يونتييف".
- 4- كما أن الطبيعيين كانوا السباقين إلى وضع أسس الاقتصاد الليبرالي الحر، من حرية و إقرار مبدأ الملكية الخاصة، و التي تعتبر من أهم المبادئ التي قام على أساسها الاقتصاد و الفكر الكلاسيكي لـ"آدم سميث".

- أهم الانتقادات
- أهم ما يوجه من انتقاد نحو ""المذهب الطبيعي"
- 1- بالرغم من ادعاء الطبيعيين الموضوعية في أبحاثهم غير أنهم لم يخفوا بعدا اجتماعيا و ذاتيا في نظرياتهم الاقتصادية، فمنتقديهم يعتقدون أن الطبيعيين عكفوا على إعطاء الزراعة أهمية كبيرة مقارنة بباقي الأنشطة الأخرى ليس لأنها النشاط الاقتصادي المنتج الوحيد فقط بل أس السبب في ذلك هو رغبتهم في تبرير دخل للملاك العقاريين الذي يحصلون عليه دون عمل من جانبهم.
- 2- كما ان نظريتهم حول القيمة يشوبها الغموض و الخطأ، فنظرا لكون الطبيعيين فشلوا في الوصول إلى فكرة أو معيار " المنفعة" في تعريف الثروة، فقد عجزوا عن تصور أن الصناعة أو التجارة ( نشاط الطبقة العقيمة) يمكن أن يكونا منتجين كذلك، لأنهما و إن اقتصرا على تحويل المواد إلا أنهما يضيفان منفعة جديدة تبرر اعتبارهما منتجين.
- 3- و فيما يتعلق بدور الطبيعة في النشاط الاقتصادي، فقد كان القياس يقتضي منهم معاملة الصناعات الاستخراجية معاملة الزراعة، حيث أن المناجم و المحاجر تعطي أيضا أكثر مما تأخذ، و لكنهم عجزوا أيضا عن إدراك هذه الحقيقة.
- 4- كما أن التطورات التي عرفتها أوربا مع ظهور الثورة الصناعية مع نهاية القرن الثامن عشر فندت الكثير من فرضيات الطبيعيون حول اعتبار الزراعة النشاط المنتج الوحيد القادر على تحقيق الرفاهية والتقدم للمجتمعات.

- سؤال / ما هو تقسيم كيناي للنشاطات الاقتصادية ؟
- الجواب /1 - النشاطات التحويلية .
- 2-النشاطات المنتجة .
- سؤال / يقسم كيناي رأس المال إلى ثلاث أجزاء ما هي ؟
- الجواب /
- •رأس المال المادي ( السلع الإنتاجية )
- •رأس المال المستخدم ( رأس المال الاجتماعي )
- •رأس المال المتداول ( ينفق على المواد الاولية ومستلزمات الإنتاج ).

شكرا لكم